صورة الممدوح في شعر ابن دراج القسطلي

أ.عبد القادر صحراوي
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة ـ الجزائر

ملخص

تكتسي صورة الممدوح في شعر ابن دراج القسطلي أهمية كبرى لا سيما أن عدد الذين مدحهم الشاعر من الأمراء والوزراء وقواد الجند والقضاة ..لا يقل عن تسعة وعشرين ممدوحا. وهذا ما دفعني أن أجيب عن الإشكال الأتي: كيف تحول غرض المدح عند **ابن دراج** الى قصيدة مدحية؟ وكيف تشكلت صورة الممدوح في شعر ابن دراج القسطلي في خضم هذه الكثرة من الممدوحين؟ وما الذي تميزت به هذه الصورة ؟

Abstract:

This paper aims to study the image of the praised in the poetry of Ibn Darraj Al-Qostoli. Firstly, it includes a concise presentation of the subject of this study, and so, It presents the linguistic and the terminological definition of the praise over all his chronological existence except in Andalusia. After that, it stands beyond the life of Ibn Darraj and his time and cultures, and even his praised poems. Finally, It shows the most important images of praise's purposes, such as bravery and generosity of the kings and princes of the two families; Ameria and Tajiebit in the end of the fourth century and the beginning of the fifth one.

تقديم:

يرصد هذا المقال صورة الممدوح في القصيدة المدحية **لابن دراج القسطلي الأندلسي،** [1] ولا سيما أن عدد الذين مدحهم الشاعر **ابن دراج** لا يقل عن تسعة وعشرين ممدوحا. وسعيا مني إلى تقديم هذا الشاعر الامازيغي الأصل الذي لا تقل شهرته عن شهرة **أبي الطيب المتنبي** باعتراف القدامى والمحدثين، فهذا **أبومنصور الثعالبي** يقول فيه: " كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد الفحول، وكان يجيد ما ينظم ويقول..." [2]

كما أن حجم هذه القصائد في ديوانه الذي بلغت مائة وثلاث وستين قصيدة ووعدد من المقطوعات جلها في المدح، لدليل على تميز هذا الشاعر وامتلاكه الصدارة بين أقرانه في عصر يعد أوله من أزهى العصور في الأندلس، وهذه الوفرة الشعرية وخاصة في تنوع صورة الممدوح لتعد ظاهرة تسترعي الانتباه وإن اختلفت بعض مقدمات القصائد ومواضيعها، ومن ثم وجب تتبع هذه الظاهرة للقصيدة المدحية في ديوان **ابن دراج،** وإن كان غرض المدح ليس جديدا على الشعراء الأندلسيين ولكنه انتقل على يد الشاعر ابن دراج من غرض المديح إلى قصيدة المديح، فلم يصبح المدح غرضا كالأغراض الأخرى من هجاء ورثاء وغيرهما، بل أصبح هو القصيدة بعينها، لهذا أردت من خلال هذا المقال الوقوف على الظاهرة، و الكشف عن تنوع وتعدد صورة الممدوح خلال المرحلتين:

مرحلة الدولة العامرية ومرحلة الفتنة القرطبية، إذ كان الديوان كله مديحا في أسرتين اثنتين كان لهما الأثر الحاسم في توجيه الأحداث، باستثناء بعض

القصائد الموجهة إلى بعض الأشخاص الذين كان لهم علاقة بأسرة آل عامر زمن الاستقرار وبأسرة آل تجيب زمن الفتنة[3].

إن موضوع صورة الممدوح في القصيدة المدحية **لابن دراج القسطلي** لم يحظ باهتمام كبير من طرف الباحثين والدارسين العرب، ونظرا لحداثة تحقيق الديوان من طرف الأستاذ الفاضل **محمود علي مكي**_ رحمه الله_. إذ نجد إشارات هنا وهناك مدرجة ضمن كتب التراجم القديمة، وبعض المؤلفات الحديثة التي اهتمت بهذا الشاعر الأندلسي الأمازيغي الأصول.

وعلى الرغم من ذلك فان شعر **ابن دراج** لا يزال بكرا يحتاج إلى دراسات معمقة تؤسس لفترة من أزهي فترات الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

1_فن المدح في الشعر العربي القديم:

أ_ المدح لغة:

جاء في (لسان العرب) **لابن منظور**: "المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء، يقال: مَدَحْتُهُ مِدْحَةً واحدة، ومَدَحَهُ يَمْدَحُهُ، مَدْحًا ومِدْحَةً. هذا قول بعضهم، والصحيح أن المَدْحَ المصدر والمِدْحَةُ الاسم، والجمع مِدَحٌ، وهو المَدِيحُ والمدائح والأَمَادِيحُ. الأخيرة على غير قياس ونظيره حديث وأحاديث، قال **أبو ذؤيب**:

لَوْ كَانَ مِدْحَةُ حَيٍّ مُنْشِرًا أَحَدًا أَحْيَى أَبَاكُنَّ–يَا لَيْلَى– الأَمَادِيحُ

والمدائح جمع المديح من الشعر الذي مُدِحَ به كالمدحة والأمدوحة، ورجل مَادِحٌ من قوم مُدَّحٍ ومديح وممدوح". [4]

وجاء في (أساس البلاغة) **للزمخشري**: "مدح: مدحه وامتدحه وممتدح وممدح، يمدح بكل لسان والعرب تتمدح بالسخاء. وهو يتمدح إلى الناس أي يطلب مدحهم، وعندي مدح حسن ومديح ومدائح ومدحة ومدح وممدحة أمدوحة وأمداديح".[5]

ويقول **الإمام أحمد بن فارس الرازي**: "جذر الفعل (م، د، ح) يدل على وصف محاسن بكلام جميل، ومدحه يمدحه مدحا: أحسن عليه الثناء، والأمدوحة: المدح، ويقال المنقبة أمدوحة"[6]

إذا فالمدح هو الثناء الجميل ووصف محاسن الممدوح بالكلام الحسن.

ب_ المدح اصطلاحا:

المدح من الأغراض الشعرية القديمة وقد عرفه **الإمام الجرجاني** بقوله: "هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري قصدا"[7]، وهو أيضا:" تعداد لجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا"[8]. وعلى حد تعبير قدامه بن جعفر فإن المدح يتفرع عنه المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة[9].

ج_ تطور غرض المدح في الشعر العربي القديم:

المدح غرض من الأغراض الشعرية القديمة التي عرفها العرب منذ العصر الجاهلي إلى اليوم، إلا أنه لم يكن من فنون الشعر الأولى، لقد تأخر في الوجود عن الأغراض الأخرى التي يتغنى فيها الشاعر بعاطفته الشخصية كالغزل مثلا. فغلب الفخر على مديح العرب فهم أهل نخوة وإباء، فلا تكاد تجد في شعر

المهلهل أو **امرئ ألقيس** مديحا مبنيا على التملق و التكسب وتصنع الأخلاق. [10] وقد ظل الأمر على هذا الحال حتى ضعفت أعصاب البداوة في بعض الشعراء، فهذا **زهير بن أبي سلمى** يتكسب بشعره مع هرم بن سنان، فلما جاء **الأعشى** جعله متجرا ولكنه تكسب في غير تزلف وكذب على الممدوح، فهو كما قال عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_ كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه. ثم ظهر النابغة فتكسب بشعره من المناذرة والغساسنة وجاء **الأعشى بعد زهير** و**النابغة**[11]، وظهر بعدهم الحطيئة فقبح الله همته الساقطة على جلالة شعره وشرف بيته[12].

لقد كان الشاعر الجاهلي تغلب على طبعه الأنفة من السؤال بالشعر إلا اضطرارا. فهو يرى ذلك نقيصة وتفضلا عليه وهو الذي عودته الحياة البدوية ألا ينحني ولا يخضع إلا لسلطان ذاته وقبيلته.

أما في صدر الإسلام فقد تطور هذا الغرض وانصبغ بصبغة الإسلام في ألفاظه ومعانيه وأساليبه، وبرز شعراء في مدح الرسول –صلى الله عليه وسلم–، من أمثال **حسان بن ثابت** و**عبد الله بن رواحة**، و**كعب بن مالك** بقصائد خالدة في نصرة الدعوة المحمدية. وقصيدة البردة **لكعب بن مالك** شاهدة على ذلك وان بقيت هذه الأخيرة محافظة على تقاليد القصيدة العربية الجاهلية. كما مدح شعراء المشركين زعماءهم وأبطالهم مفاخرين ومدافعين عن ارث آبائهم الهالك، وهاجين الرسول– صلى الله عليه وسلم– وأنصاره.

وما إن جاء العصر الأموي حتى عادت العصبية القبلية تعلي من شان القبيلة وتفاخر بأمجادها ونسبها. فكثر فيها المديح والهجاء وتحول هذا الأخير إلى فن

جديد أصبح يعرف بفن النقائض على يد **جرير** و**الفرزدق** و**الأخطل** شاعر بني مروان.

ويروى أن **جميل بن معمر** لم يمدح أحدا قط إلا ذويه وقرابته .كما يروى أن **عمر بن أبي ربيعة** ترفع عن المدح والهجاء، وأن **العباس بن الأحنف** أنف عن المدح تضرفا [13]. ويقال أن **كثير عزة** أول من فعل ذلك، "وقد حكى عن عمارة أن جده جريرا قال: يابني إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة، فإنه ينسي أولها ولا يحفظ آخرها، وإذا هجوتم فخالفوا"[14]. وأما المحدثون من الشعراء فقد أكثروا المديح، وقد جرأهم على ذلك جود الخلفاء ورغبتهم في اصطناعهم. ورغم النقد الذي وجه لهؤلاء الشعراء الذين جعلوا من الشعر أداة للتكسب والارتزاق لما فيه من الكذب وتجميل صورة الممدوح، وبذلك يكون الشعر بعيدا عن الصدق[15]. لكنهم لم ينقطعوا عن المدح والتكسب به في سبيل المال والجاه ونيل حضوه الخليفة أو الأمير.

د_ فن المدح عند شعراء الأندلس:

لم يختلف شعراء الأندلس عن شعراء المشرق في هذا الفن الشعري فقد "نظموا المدائح وأكثروا منها، حتى لنرى بعض كبار شعرائهم من أمثال **ابن هاني الأندلسي**، و**ابن دراج القسطلي**، و**ابن حمديس الصقلّي**، قد خرج معظم شعرهم في المديح"[16]. وإن المتتبع لتطور قصيدة المديح في الأندلس "يرى أن معظمها موجه إلى أمراء الأندلس وخلفائهم وملوكهم، وأنها من حيث المضمون أو المحتوى لها جانبان: جانب يريك الصفات التي يخلعها الشعراء على ممدوحيهم، وهذه لا

تخرج عادة عن الصفات التقليدية التي يطيب للعربي أن يوصف بها، كصفات المروءة والوفاء والكرم والشجاعة، وما أشبه.

أما الجانب الآخر فيدور حول انتصارات الممدوحين التي تعد نصرا للإسلام والمسلمين، ويدخل في ذلك أحيانا وصف جيوشهم ومعاركهم الحربية"[17].

كما يشير **ابن عتيق** أن شعراء الأندلس يتأنقون في مديحهم وينوعون في أساليبهم بين الجزالة والفخامة والرقة والسهولة. كما أن طرائقهم في بناء القصائد المدحية تختلف من شاعر إلى آخر، فمنه من يبني قصيدته على غرض المدح وحده فيدخل فيه من غير مقدمات، ومنهم من يبنيها على موضوعين فيستهلها بالغزل أو وصف للطبيعة أو الخمر أو الشكوى أو العتاب ثم يخرج إلى المدح. ومنهم من يبنيها على ثلاثة موضوعات فيستهلها باثنين من الموضوعات السابقة حتى إذا بلغ غايته منهما انتقل إلى المدح. فهو يرى أن الشاعر الأندلسي ليس مبدعا في المدح إنما يجري في ذلك على سنن الأقدمين فهي تبنى من مقدمة طللية، فنسيب، فوصف للرحلة، فتخلص للمدح.

لقد أشار **ابن قتيبة** إلى الأسس التي قامت عليها تقاليد قصيدة المدح قديمة، فهو يرى سماعا عن بعض أهل الأدب أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهله الظاعنين عنها، انتجاعا للكلأ وتتبعا للماء، ومساقط الغيث حيث كان.

ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه ويستدعي به إصغاء الأسماع

إليه. لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد يكون أحد يخلومن أن يكون متعلقا به بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أم حرام.

فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وأنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحب المقصود حق الرجاء والتأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه[18].

هذه قراءة نفسية واجتماعية لابن قتيبة في تحليله للأسس التي قامت عليها القصيدة المدحية قديما ونراه محقا في ذلك فالممدوح يستحق هذا التقديم وهذا العناء فهو الذي سيغدق على مادحه الخير كله.

إن الشعراء الأندلسيين لا يختلفون كثيرا في بناء القصيدة عن الشعراء المشارقة ولكنهم يتميزون عنهم بتنوع الموضوعات وثرائها، فالأندلس رغم كونها الامتداد الطبيعي للخلافة الأموية في المشرق ورغم ما شهدته من ازدهار في عهد الدولة العامرية، وخاصة في عهد الحاجب المنصور ومن بعده أبنائه إلا أنها شهدت أحداثا وحروبا وصراعات وفتنا عز فيها أقوام وذل آخرون. وما عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري إلا شاهد على ذلك.

2- ابن دراج القسطلي:

هو **أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد سلمان بن عيسى بن دراج الأندلسي القسطلي** الشاعر الكاتب، كان كاتب **المنصور ابن أبي عامر** وشاعره. وهو معدود في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المقدمين، ذكره **أبومنصور الثعالبي** في "يتيمة الدهر "وقال في حقه "كان بصقع الأندلس **كالمتنبي** بصقع الشام، وهو أحد الشعراء الفحول وكان يجيد ما ينظم ...و ذكره **أبو الحسن علي ابن بسام** في كتاب" الذخيرة "وساق طرفا من رسائله ونظمه [19]، وكنيته **أبو عمر** [20].

ينحدر **ابن دراج** من أسرة نبيلة مرموقة الشأن حتى أن بلده قسطلة* كانت معروفة في كتب الجغرافيين باسم (قسطلة دراج)، وبنو دراج ينتمون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، ويبدوإن دخول هؤلاء إلى الأندلس كان يرجع إلى الوقت الذي افتتح فيه طارق بن زياد هذه البلاد في سنة 92هـ. [21]

فابن دراج كان ذا نسب عريق، وأن عائلته تداولت على رئاسة بلدة قسطلة، والذي يتأمل ديوان **ابن دراج** دون أن يعرف نسبه البربري لا يكاد يحس فيه بأي أثر لذلك النسب، ولعل هذا راجع في الغالب إلى أن البربر الذين دخلوا الأندلس في الرعيل الأول من فاتحيها المسلمين لم يستقروا في هذه البلاد حتى تأقلموا بسرعة مذهلة، هكذا لم يمض القليل من الوقت حتى اندمجوا في المجتمع الأندلسي اندماجا كاملا. [22]

فابن دراج نشأ أندلسيا وعاش شاعرا محبا للعربية مبدعا في صورها وأخيلتها، ومؤمنا بقداسة كل ما هو عربي حتى في محنته في عصر ملوك

الطوائف. ولمعرفة هذا الشاعر الفذ سنقف على مراحل حياته المتغيرة والتي قسمها الباحث الكبير على محمود مكي–رحمه الله–إلى المراحل الآتية:

المرحلة الأولى:(347-382هـ)

وهي مرحلة تسبق اتصال الشاعر **بالمنصور بن أبي عامر*** وهي مرحلة غامضة تفتقد إلى الدقة. ويعتمد محقق الديوان **علي محمود مكي** على التخمين والظن "وأغلب الظن أن **ابن دراج** بدأ حياته الدراسية تلميذا يتردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم في جيان لحفظ القرآن والإلمام بمبادئ النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه...ولسنا نستبعد أن يكون **ابن دراج** وهو في غضاضة الصبا قد قام بعدة رحلات إلى قرطبة ... "[23]

المرحلة الثانية:(382-399هـ)

وهي من أزهى الفترات التي عاشها **بن دراج** في كنف الدولة العامرية، وأبدع فيها بقصائده المدحية في المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك وعبد الرحمان شنجول،* معليا صورة ممدوحيه ومصورا بطولاتهم وشجاعتهم في قهر الفرنجة وقيام دولة الحق والعدل بقصائد نافست فحول الشعراء في القرن الرابع والخامس الهجريين[24].

المرحلة الثالثة:(399-421هـ)

إنها مرحلة نهاية دولة وبداية عصر جديد، عصر الفتن والانقسام، إنه عصر ملوك الطوائف، وهنا الشاعر وجد نفسه في رحلة تيه وضياع، بين تلك الدويلات سواء من الموالين للعامريين من بعض الفتيان الصقالبة الذين كانت

للشاعر علاقة معهم إبان الدولة العامرية كخيران العامري ولبيب العامري حاكم طرطوشة ومبارك ومظفر صاحب بلنسية وغيرهم من القادة والأمراء الأمويين من أمثال سليمان المستعين بالله والمهدي محمد بن عبد الجبار والمرتضى آخر كلوك بني مروان، ولكنه وجد الجفاء واللامبالاة من طرف هؤلاء الأمراء وقد صور **ابن بسام** هذه الوفادات حين قال:

"كان **القسطلي**–حسب ما قدمنا صدر هذا الديوان– من فتنة ذلك الزمان بمنشأ ليلها، وعلى مدرج سيلها، فأوثقته في حبالها، وعركته عرك الرحى بثقالها، ولم يزل يتقلب بين أطباقها، ويترشف أسآر ثمادها و أرناقها، فكم له من وفادة أخرى من وفادة البرجمي، ووسيلة أضيع من المصحف في بيت الزنديق الأمي، بقصائد لو مدح الزمان لما جار أو رواها الزبرقان"[25]

المرحلة الأخيرة:

وهي المرحلة التي قضى فيها الشاعر ما يقارب العشر سنوات في بلاط منذر التجيبي وابنه يحي مادحا ومصورا لأحداث هذه المرحلة ومخلدا لمآثر الأسرة التجيبية، وقد كتب فيها ما يقارب الثلث من إنتاجه الشعري أي سبعة وأربعين قصيدة.

إن الشاعر **بن دراج القسطلي** شاعر الأندلس بلا منازع باعتراف القدامى والمحدثين وقد أكسبته تجربته الشعرية حنكة ونبوغا في قول الشعر فصار متنبي الأندلس، وهذا **أبو حيان** يقول فيه :"أبو عمر بن دراج القسطلي سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين"[26].

3_القصيدة المدحية في ديوان ابن دراج القسطلي:

سنعتمد في إبراز ظاهرة المدحة التي تحولت من غرض المدح إلى قصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق الدكتور محمود علي مكي _رحمه الله_. من خلال مرحلتين متميزتين هما المرحلة العامرية والمرحلة التجيبية. والجدولان الآتيان يبينان نسبة القصائد المدحية وأهم وأشهر الممدوحين فيهما:

القصائد المدحية	الممدوح
1،3،4،77،78،99،100،101 105،102،103الى 120	المنصور بن أبي عامر: وهو الممدوح الأول لابن دراج وخصه وابنيه بثلث شعره (3/1)
من 5 إلى 12 79،104،130،135،121، 122،123،124،126	المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر
128	الناصر عبد الرحمان بن المنصور بن أبي عامر(شنجول)
143،145	المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمان بن أبي عامر: ابن شنجول
23،24	الوزير عيسى بن سعيد :وزير العامريين

من 39 الى 57 و139،129،82،75 و148،143،142، ومن 151الى154 و159،157.	منذر بن يحي التجيبي: أمير سرقسطة اتصل به الشاعر سنة408هـ وقضى ما يقارب عشر سنوات في بلاطه وبلاط ابنه وقد بلغ شعره الثلث في التجبتيين(3/1)
من 59 الى 9،93،92،74، 141،137،98،96، 146،56	المظفر يحي بن منذر بن يحي(منذر الثاني) وهو ابن منذر الأول تولى إمارة سرقسطة بعد والده.

من الجدولين السابقين نخلص إلى أن جل شعر ابن دراج في الأسرتين العامرية والتجيبية، ومع ذلك نجد للشاعر قصائد يمدح فيها بعض ملوك الطوائف، بل امتد مدحه إلى قادة الجيش وأصحاب الشرطة وغيرهم.

4_صورة الممدوح في شعر بن دراج:

لقد تنوعت صورة الممدوح في شعر بن دراج وتعددت معانيها، والجدول الآتي يرصد هذه الظاهرة ويبين قدرة الشاعر ابن دراج في تشكيل صورة ممدوحيه من أمراء وقواد وغيرهم:

رقم القصيدة	الأبيات	الممدوح	الصورة
01	33 –جوادٌ له من بهجةِ العزِّ غُرَّةٌ ومن شيمِ الفضلِ المبينِ حجولُ 34–به أَمِنَ الإسلامُ شرقًا ومغربًا وغالت غواياتِ الضلالةِ غولُ 35–يَصولُ بسيفِ اللهِ عَنَّا وإنما به السيفُ في ضنْكِ المقامِ يصولُ(27)	المنصور بن أبي عامر	يصور ابن دراج الأمير المنصور بن أبي عامر أنه جواد جاءت على وزن اسم الفاعل(فاعل) لاظهار اليد الطولا لفعل الخير، وغرّ محجّل من أثر العز والفضل وهذه صورة المؤمنيين من أمة محمد (ص) وهم يدعون يوم القيامة غرّا محجلين من أثر الوضوء فالشاعر استطاع أن يتناص مع الحديث النبوي الشريف ويبني منه صورة للممدوحه ترفعه إلى مقام الناجين يوم القيامة. ولمَ لا وهو حامي الإسلام شرقا وغربا، فهولا يقل مرتبة عن خالد بن الوليد فهو سيف من سيوف

			الله المسلولة.
01	50–فيَهنيك يا منصورُ مبدأُ أَنْعُمٍ عَوائدُه صنع لديكَ جميلُ 51–وفرعان من دوحِ الثناءِ نمتها من المجد في التُّرب الزَّكِّي أصولُ 54–ويَهْنِيكَ شَهرٌ عند ذي العرش شاهدٌ بأَنَّكَ بَرٌّ بالصيامِ وَصُولُ 55–فَوُفِّيتَ أَجْرَ الصابرين ولا عَدَا مساعِيكَ فوزٌ عاجلٌ وقَبُولُ[28]		يهنئ الشاعر المنصور على عوائده الجميلة فهو الكريم ابن الكريم ورث المجد كابر عن كابر. إن الشاعر ابن دراج يرسم لنا صورة ممدوحه يوم العيد وهو العابد التقي الصائم والصابر المحتسب أجره لله ،الذي لا ينتظر الثواب إلا من الله تعالى ... فيأتي الجزاء من جنس العمل في الآية الكريمة "إِنَّمَا يوفى لصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْر حِسَابٍ" فالشاعر برع في توظيف النص القرآن في مدح المنصور بن عامر وأعطاء الصورة المثلى التي تليق بقائد عظيم حمل أعباء

			الجهاد ونصرة دين الله.
03	43-بُنَيَّ اليكِ اليومَ عنِّي فإنها عزائمُ كفُّ العامريِّ مداها 44-فَحَطَّتْ بمغنى الجودِ والمجدِ رَحْلَها وأَلقت بِرَبْعِ المَكْرُمَاتِ عَصَاها 45-لَدى مَلِكٍ إحدى لواحظِ طَرْفِهِ بعين الرِّضَا حَسْبُ المُنى وكَفَاها 46-هو الحَاجِبُ المنصورُ والمَلِكُ الذي سَعى فتعالى جَدّهُ فَتَنَاهى 47-سليلُ الملوكِ الصِّيدِ من سَرْوِ حِمْيَرٍ توسَّطَ في الأَحْسابِ سَمْكَ		بقدر ما رسمت جملة " بُنَيَّ اليك اليومَ عنِّي " تعلق الأهل وتشبثهم بابن دراج، فبالقدر نفسه عكست علوق الشاعر بالعامري ومدى حبه له، فمن أجله تشد الرحال، أوليس هو ولي نعمته ومليكه؟ فهو الملك صاحب العظمة والجلال مقتبسا هذا المعنى من قوله تعالى (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا...) الجن/3 أي عظمت وتعاليت يا منصور عن الند والمثيل فأنت سليل الملوك من سرو حمير، ذوو الملك والتيجان، فقد تباهت التيجان بكم بدل أن تتباهوا أنتم بها ،فجاءت

	ذُرَاها 52-ذَوُو المُلْكِ والتِّيجَانِ والغُرَرِ التي جَدِيرٌ بها التيجانُ أن تَتَبَاهى[29]		الصورة مقلوبة فالأصل أن تتباهى الملوك بالتيجان وبأحجاره الكريمة وتتنافس في ذلك إلا أن شاعرنا قلب الصورة فالتيجان هي التي تتباها وتفتخر بأن توضع على رؤوس بني عامر وهذا يدل على براعة الشاعر في إخراج صورة ممدوحه ورسمها.
100	49-وفَلَّ عَنِّيَ أحزابَ العِدى مَلِكٌ مُعَوَّدٌ أن يفَلَّ الجحفلَ اللجِبَا 50-ويَتْرُكَ المَلِكَ الجبَّارَ مُخْتَلَعًا عنه رِداء العُلَاَ والعِزَّ مُسْتَلَبَا 51-مُجدَّلًا بِجُنُوبِ الأرْضِ	المنصور بن أبي عامر	يشيد الشاعر بممدوحه المنصور بن عامر الذي فند مزاعم خصومه من الشعراء الذين اتهموه بالانتحال والسرقة وقد أكرمه أيما إكرام،فهو القائد الفطن الذي هزم جحافل الأعداء وترك ملكها ذليلا عبر عن ذلك بالعبارة" مُخْتَلَعًا عنه رِداء العُلَاَ والعِزَّ مُسْتَلَبَا

111	مُنْعَفِرًا ومُشْعَرًا بِنَجِيعِ الجَوْفِ مُخْتَضِبًا(30)		"كناية عن الذل والهوان والهزيمة. ولم يكتف بذلك حتى تركه مخضبا بدمائه. فقد شكل ابن دراج بهذه الأبيات صورة القائد الكيس الفطن الذي يقف عند الحق ويقهر الأعداء ويذلهم.
	16-يا قائِدَ الخيلِ العِتاقِ كأَنما عَزَمَاتُهُ أَرماحُها وشِفارُها 17-ليثٌ يُخاطِرُ في المَكَرِّ بنفسِهِ هِمَمٌ عظيمٌ في العلا أَخطارُها		يستفتح الشاعر الأبيات بالنداء لجلب انتباه المتلقي عبر الزمن لعظمة هذا المنادى الذي جاء معرفا بالإضافة، فقد أضيف هذا القائد للخيل العتاق أي الكريمة والأصيلة وهي كناية عن رفع لواء الجهاد في

	18-أَوطَأْتَ أَرضَ المشركينَ كتائِبًا فيها وَشيكُ فَنائها ودَمَارُها 19-وتركتَ أَرضَ "لِيُونَ" وَهِيَ كأَنَّهَا لم تَغْنَ بالأمسِ القريبِ دِيارُها 20-مرفوعةً لكَ في العلا أَعلامُها لما غَدَتْ بك عافِيًا آثارُها (31)		سبيل الله، كما يشبه عزماته بالرماح والشفار في قوتها وحدتها وفتكها،فهو ليث ووجه الشبه هنا المخاطرة وعدم الخوف دليل على همته العالية . ويواصل الشاعر رسم صورة ممدوحه الحاجب المنصور المنتصر على الأعداء من خلال الواقعة الحربية المتمثلة في غزوه مملكة" ليون"وتدميرها . وقد أحسن الشاعر استعمال ألفاظ وعبارات أسهمت في تشكيل هذه الصورة . إن استخدامه للفعل "أوطأت" فيه دوس بالإقدام لأرض "المشركين" ولم يقل أرض الكافرين إشارة منه إلى المتآمرين من المسلمين من

			أمثال عبد الله بن عبد العزيز الأموي المعروف باسم بترة شقة(الحجر اليابس) (الديوان ص549) كما نجد عبارة "كأنها لم تغنى بالأمس" المقتبسة من القرآن الكريم ، إشارة إلى الكلام المحذوف "فجعلها حصيدا"، فابن منصور من شدة وطئه بجيوشه لتلك المملكة صيرها خرابا ودمارا لا يرجى منها النفع، وكأنها لم تعمر ولم تسكن من قبل، ليختم بجملة "مرفوعةً لكَ في العلا أَعلامُها" كناية عن النصر المبين.
	5-أَلَا في سبيلِ الله عَزْمَتُكَ التي على الدينِ والإسلامِ منْهما	عبد	صورة المجاهد في سبيل الله، المؤيد بالنصر و الهازم للشرك والمشركين.

	دَلَائلُ 6-فقد نَطَقَتْ بالنصرِ فيها شواهدٌ وقد وَضَحَتْ للفتح منها مَخَائِلُ 7-فأَبْشِرْ فنجمُ الدين بالسعد طالِعٌ وأَيْقِنْ فنجم الشِّرْكِ بالخزيِ آفِلُ 14-كَرُمَتْ فما يَعْيَا بِحَمْدِكَ مُفْحَمٌ وسُدْتَ فما يَغْبَى بِقَدْرِكَ جاهل 15-وَجودُك في سِلْمٍ وبأْسُكَ في وَغًى بُحُورٌ طوامٍ ما لهُنَّ سواحل (32)	الملك بن المنصور ابن أبي عامر	الكريم الذي لا يوفي كرمه شكر ولا ثناء. فهو الجواد في السلم وشديد البأس في الحرب،فهو البحر في جوده وغضبه.
	4-فَلَا أَوْحَشَتْ من عِزِّ		صورة القائد الذي انتهى اليه

07	ذكرِكَ دَوْلَةٌ إليكَ انتهى مأْمُورُهَا وأَمِيرُها 5-فما راق إلا في جبينك تَاجُهَا ولا قَرَّ إلا إذ حواك سريرُها 6-فلا راعها خَطْبٌ وسيفُكَ أُنْسَها ولا رامها ضيمٌ وأنتَ مُجيرُها 7-ومَنْ ذا يُناوِيهَا وأنت أميرُها ومِنْ نَسْلِكَ الزَّاكي الكريمِ وزيرُها؟ 8-فتًى طالَعَتْهُ بالسعود نجومُها وطارت له باليُمْنِ فينا طيورُها 9-أَذَلَّ له"عبدُ المليكِ"		السلطان والقوة. وصورة الاستواء على العرش(التاج، السرير). فهو حامي الدولة العامرية بسيفه ،ورافع الظلم عن أهلها.

	ملوكَهَا وأَنْجَبَهُ "المنصورُ" فَهُوَ نصيرها[33]		
09	8-وأَشجعَ من حطته الخيولُ وأَهْيَبَ من رَهِبَتْهُ الأسودُ 9-وأَصمدَ من جَرَبَتْهُ السيوفُ وأَجمَلَ من ظَلَّلَتْهُ البُنُودُ 10-ومَنْ هو للمُلكِ سورٌ منيعٌ ومن هو للدِّينِ ركنٌ مَشِيدُ[24]		صور الشجاعة المتلون بصورة الفارس المهيب المجرب والأجمل وهو يرفع رايات النصر. صورة الملك رافع راية الإسلام.
	58-وَمَشَاهِدٍ لَكَ لَمْ تَكُنْ أَيَّامُهَا ظَنًّا يَرِيبُ وَلا حَدِيثًا يُفْتَرَى		صورة الأيام الشاهدة على شجاعة وبطولة منذر بن يحي الذي واجه الموت فهزمه,

39	59-لاقَيْتَ فيها المَوْتَ أَسْوَدَ أَدْهَمًا فَذَعَرْتَهُ بالسَّيْفِ أَبيضَ أَحْمَرَا 62-و"المُنْذِرُ"الأَعْدَاءَ بالبُشْرَى لَنا صَدَقَتْ صِفَاتُكَ مَنْذِرًا وَمُبَشِرًا 63-ماصُوِّرَ الإِيمانُ في قَلْبِ امْرِئٍ حتَّى يَرَاكَ اللهُ فيهِ مُصَوَّرَا (35)	منذر بن يحي	هو المنذر للأعداء المبشر بالنص، هو صورة الإيمان في قلوب المؤمنين. فمنذر بن يحي هو صورة المجاهد الحق في سبيل الإسلام.
59	5-ومُلْكًا وتَمليكًا وفَلْجًا وغبطَةً وعزًّا وإعزازًا ونصرًا وتمكينَا 6-دُعاءٌ لمن عَزَّتْ به دعوةُ الهُدى يقول له الإسلامُ :آمِينَ	المظفر	صورة الملك المعتز بملكه، الممكن بنصره، فالمظفر يحي بن المنصور فتى عز به الإسلام والمسلمين في دينهم ودنياهم.

	آميناَ 7-فتًى مَلَكَ الدنيا فَمَلَّكَنَا بها وجاهدَ عنَّا ينصُرُ المُلْكَ والدِّيناَ 8-فقلَّد أعناقَ الأُسُودِ أَساوِدًا وحلَّى أَكُفَّ الدَّارِعِينَ ثَعابيناَ (36)	يحي بن المنصور	فشجاعته تجاوزت الوصف والخيال فهو مروض الأسود و الثعابين..
	5-وناديتَ بالإِنْعَامِ في الأرضِ فالْتَقَتْ بيُمناكَ أَشْتَاتُ الطَّرَائِقِ والسُّبْلِ 6-وحَلَّتْ بكَ الآمالُ في عَدَدِ الدَّبى فوافَتْ أَيادٍ منكَ في عَدَدِ الرَّمْلِ(37)	الوزير عيسى بن سعد	صورة الرجل الكريم صاحب اليد الطولى ،وصورة الآمال المعلقة عليه.
33	44-فَتًى سَيْفُهُ لِلدِّينِ أَمْنٌ	خيران	صورة الفتى الشجاع ناصر

	وإيمانٌ ويُمْنَاهُ لِلْآمَالِ روحٌ ورَيْحَانُ 45-تَقَلَّدَ سَيْفَ اللهِ فِينا بِحَقِّهِ فَبَرَّتْ عُهُودٌ بالوفاءِ وَأَيْمانُ[38]	العامري	الدين الفتى الكريم المعطاء.

تنوعت صور الممدوح من قصيدة إلى أخري، وتفنن الشاعر في إخراج معانيها بصور متعددة، مما زاد في ثراء القصائد وجمالها، ومن هذه الصور نجد :الشجاعة ،الكرم ،الواقعة الحربية، الخلف الصالح، المجد، إقامة شعائر الدين، العدل، الجهاد ...فصورة الشجاعة مثلا هي إحدى الصور المتواترة في الديوان أخرجها الشاعر في عدة أوجه فالشجاعة تارة اقتدار على خوض الحروب وهي بطش بالأعداء وهي استبسال في الدفاع وهي دهاء في قيادة المعركة وحنكة في المواقف الصعبة فكل معنى من هذه المعاني يندرج ضمن المعنى الأشمل وهو الشجاعة.

أما من حيث أهمية هذه الصور فان الشجاعة كانت الأكثر حضورا في القصائد المدحية **لابن دراج**، وهكذا تجلت صورة الشجاعة عند **ابن دراج** بصور متنوعة ومختلفة توضحها الخطاطة الآتية:

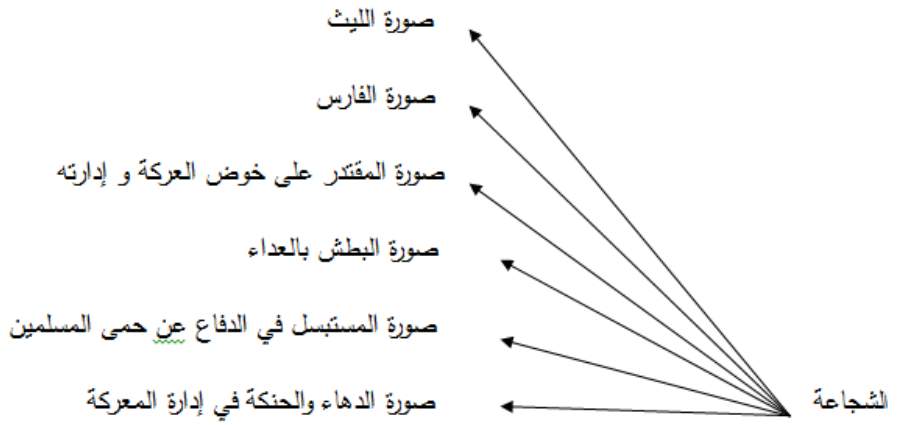

أما الكرم فهو سحابة ممطرة على الشاعر بن دراج وهو اليد ممدودة العليا وهو الإغداق بلا حدود على الأضياف وهو سقي الأرض العطشى، أرض الشاعر التي أنبتت شعرا يؤتي أكله كل حين بإذن ربه. والمجد صورة لتلك المناقب العظيمة التي ورثها الممدوح عن أجداده وعن النسب العريق الضارب في التاريخ.

كما أن صورة الممدوح قد أخرجها الشاعر في صورة دينية كتقوى الممدوح وورعه، وحماية الدين ورافع لواء الجهاد.

لقد أسهم **ابن دراج** في تسجيل عدة وقائع حربية خاضها ممدوحوه، ورسم لنا لوحة متعددة الألوان تنعكس عليها كل الأطراف المادية و المعنوية المشاركة في تلك الواقعة. فتصوير الواقعة الحربية هو تصوير لدور الممدوح في الحرب و الحالة النفسية للعدو و أحداث القتال ووصف أدوات الحرب ووصف الجند ثم التبشير بالنصر وتهنئة الممدوح بذلك .

وما نلاحظه أن صور الممدوح فيه ما هو جاهلي وما هو إسلامي فمن المعاني الجاهلية في وصف الممدوح الشجاعة الكرم...ومن المعاني الإسلامية

الجهاد وإقامة الدين وقد حاول بن دراج أن ينزل هذه المعني والصور منزلتها الأندلسية الخاصة.

ونخلص في بحثنا هذا إلى جملة من النتائج منها: أن الشاعر **بن دراج القسطلي** الأمازيغي الأصل شاعر فذ تجاوز شعره حدود شخصيته، ولا سيما أنه عاش فترتين متناقضتين مرحلة انتصارات القائد العظيم المنصور ابن أبي عامر و مرحلة الفتنة القرطبية، وتيه الشاعر ورحلته بين فتيان بني عامر وغيرهم، حتى استقر به الحال عند يحي التجيبتي الذي مدحه هو الآخر بثلث شعره. وقد خلد الشاعر هاتين الفترتين بقصائد لو مدح الزمان لما جار أو رواها الزبرقان على حد قول ابن بسام.

إن القصيدة المدحية بدت متميزة في معانيها ومواضيعها و وأساليبها ومعجمها اللغوي، كما أن صورة الممدوح –وهو مقصدنا في هذا البحث–قد تنوعت وتفاوتت من ممدوح إلى أخر ومن قصيدة إلى أخرى وجاءت متعددة الألوان والأشكال مما يدل على براعة وحذاقة **ابن دراج القسطلي**...كما أن شعره المدحي ما زال يطرح قضايا نقدية كثيرة منها قضية التأثير بين المشرق والمغرب وقد اثبت ابن دراج–رحمه الله– قدرته على مجاراة المشارقة بل منافستهم ومنافحتهم.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن دراج القسطلي: هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد سلمان بن عيسى بن دراج الأندلسي القسطلي الشاعر الكاتب. كان كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعره وهو معدود في تاريخ الأندلس من جملة الشعراء المجيدين.

(مراجعة ترجمة ابن دراج وأخباره .جذوة المقتبس ترجمة 186 .الثعالبي :يتيمة الدهر:2/103-116. ابن بسام الذخيرة ق59-889،450،376،353،351،103. ابن بشكوال: الصلة ترجمة 77 . ينظر: مقدمة الديوان. تحقيق وتقديم: محمود علي مكي.ط1.دمشق: منشورات المكتب الإسلامي.1961م .ص 21. وط2. الكويت: منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري،2004م.ص.8)

2_ الثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.ط2.القاهرة،1956م.ج2.1/104.

3 _ينظر: لمحضر، المصطفى. ابن دراج القسطلي الأندلسي- بين الانتصار والانكسار- ط1. مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية.2010م .ص9.

4- ابن منظور. لسان العرب. مادة: (مدح).ط1. بيروت: دارصادر،1997م. ج6، ص.27

5 _ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. أساس البلاغة. تحقيق: عبد الرحيم محمود. (د. ط). بيروت: طبع دار المعرفة. ص .324

6 _ القزويني، أحمد بن فارس. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون .دار الفكر،1979م .ج5.ص.308

7 _ الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد. كتاب التعريفات.ط1.بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية ،1983م. ص .297

8 _جبور، عبد النور: المعجم الأدبي.ط2. بيروت: طبع دار العلم للملايين، 1984م.ص245.

9 _ ينظر :قدامة بن جعفر. نقد النثر. طبعة القاهرة، 1983م. ص81.

10- ينظر: عتيق، عبد العزيز. الأدب العربي في الأندلس.(د. ط).بيروت، لبنان: دار النهضة العربية، (د.ت).ص183.

11- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

12- ينظر: ابن رشيق، أبي علي الحسن. العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده-باب التكسب بالشعر والأنفة منه-تحقيق :عبد الحميد هنداوي.ط1.بيروت:المكتبة العصرية،2001م.ج1.ص ص69_72.

13 _ ينظر: عبد العزيز عتيق، مرجع سابق، ص184.

14-ابن رشيق القيرواني، مصدر سابق، ص148.

15-ينظر:عبد العزيز عتيق مرجع سابق، ص184.

16 –المرجع نفسه، ص 185.

17–المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

18 – ابن قتيبة، أبو محمد بن عبد الله بن مسلم .الشعر و الشعراء. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار المعارف. ج1 ص74،75

19– ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (608_681هـ) تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، ج1، ص 135.وديوان ابن دراج القسطلي، مصدر سابق،ط2. ص.8

20 –مقدمة الديوان،ط2.ص8.

* قسطلة : قرية في غرب الأندلس، هذا ما ذهب اليه الحميري، أما موقعها فهي القرية الداخلة في حدود البرتغال والتي تسمىcacella

من أعمال منطقة Algavre أنظر: .مقدمة الديوان ،ص14.

21 –المصدر نفسه، ص9.

22– المصدر نفسه، ص 10.

*المنصور بن عامر: هو الملك الأعظم المنصور بن أبي عامر محمد بن عبد الله بن عامر ابن أبي عامر ابن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من قرية تركش، وعبد الملك جده هو الوافد من الأندلس مع طارق في أول الداخلين من العرب. وقال في المطمح في حقي بن أبي عامر: انه تمرس في بلاد الشرك أعظم تمرس ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس وغادرهم صرعى البقاع و تركهم أذل من وتد بقاع ووالى على بلادهم الوقائع وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع

وأغص بالحمام أرواحهم ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم .(نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تأليف الشيخ احمد بن المقري التلمساني حققه: د إحسان عباس ج1دار صادر بيروت1988م) ص ص: 392 ،403..

23 – المصدر نفسه، ص ص19،20.

*شنجول: هو عبد الرحمان بن المنصور بن ابي عامر، أخ عبد الملك المظفر. و شنجول اسم جاء من قبل امه عبد بنت شنجة النصراني. البيان لبن عذارى 83./3:

24 –ابن دراج القسطلي. بين الانتصار و الانكسار. مرجع سابق .ص 72.

25–ابن بسام، الشنتريني. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق: إحسان عباس. لبنان: دار الثقافة،1997م. ،ج1،ق3،ص ص .10،11

26– المصدر نفسه ،ج1،ق1،ص 60.

27– القسطلي، ابن دراج. الديوان.ط2. مصدر سابق.ص78.

28– المصدر نفسه، ص80.

29 – المصدر نفسه، ص ص .86،87

30– المصدر نفسه، ص.501

31– المصدر نفسه، ص550 .

32– المصدر نفسه، ص ص94،95.

33 – المصدر نفسه، ص96 .

34 – المصدر نفسه، ص 101،102 .

35– المصدر نفسه، ص219 .

36– المصدر نفسه، ص349 .

37– المصدر نفسه، ص123 .

38 – المصدر نفسه، ص177.